

مدينة المصريين الأقدمين

تقتطف الصفحات التالية من كتاب في « تاريخ مصر القديم والحديث »^(١) ،
لحضرة الكاتبة الفاضلة السيدة هند كريمة سعادة اسكندر عمون بك المحامي الشهير .
وقد بحثت حضرتها بحثاً دقيقاً في مدينة مصر ، في أزمنتها الأولى ، فتكلمت عن
الديانة والشرائع والعلوم والآداب والصنائع والكتابة كلاماً كثير الفائدة ولكننا
اقتصرنا على نقل ما ورد فيه عن ديانة المصريين وشرائعهم . قالت :

سبق قدماء المصريين شعوب العالم قاطبةً في مضمار التمدن والترقي ،
وأدركوا من العلوم والمعارف والآداب ما لم تبلغ إليه أمةٌ في تلك الأعصر
الخوالي ، حتى انه ليصح أن تُعدَّ المدينة المصرية أمماً لمدينتي شعوبٍ
كثيرة أخذت عنها واقتدت بها . وقد خلف لنا المصريون من الآثار
المجيدة ما ينطق بما كانوا عليه من التقدم الأدبي والمادي والصناعي ؛ ولا
يزال علماء العاديات يكتشفون في أيامنا هذه أدلةً على ازدهار المدينة
المصرية القديمة . وفي ما يلي شيء مما كانت عليه حالة مصر الدينية
والأدبية والمادية :

الديانة المصرية - كان قدماء المصريين من أشد الأمم تمسكاً
بالدين ؛ يدلُّ على ذلك المعابد والهياكل الكثيرة التي لا يزال معظمها قائماً
حتى يومنا . وأصل دينهم مجهول ، ولعلم أتوا به من آسيا عندما هاجروا
منها الى مصر . وكانوا في بداية أمرهم موحدين يؤمنون بالله واحدٍ أزليٍّ
مبدع الأرض والسما ، تعجز العقول عن إدراك جوهره . ثم أخذوا

(١) يطبع اليوم في مطبعة المعارف بمصر

يعبدون ذلك الاله في مظاهره المتعددة؛ فرمزوا الى كل صفة من صفاته
بتمثال أو حيوان أو نبات أو غير ذلك؛ فأدى بهم هذا الى الشرك
والوثنية؛ وقسموا الآلهة الى ثلاث طوائف: آلهة الموتى، والآلهة الشمسية،
وآلهة العناصر. ومن أعظم آلهة الموتى «أوزيريس» إله الخير ورمزه
النيل، و«إيزيس» إلهة الخصب والحياة ورمزها التربة السوداء،
و«أنوبيس» حافظ الموتى ورمزه ابن آوى. ومن أعظم الآلهة الشمسية
«رع» الاله الأكبر ورمزه الشمس، و«تم» إلهة الغروب ورمزها
العجل منيفس. أما آلهة العناصر فأعظمها «نو» إله الماء ورمزه
المحيط، و«تيفون» إله الشر والفاقة ورمزه الصحراء. وقد تختلف أسماء
هذه الآلهة باختلاف الأعصر والأماكن التي عُبِدت فيها. وكان قدماء
المصريين يعتقدون أن آلهتهم تتزوج، وتتألم، وتموت، وترعى حقوق
الجوار، وتأكل وتشرب، فكانوا يقربون لها القرابين والضحايا من
الحيوان والحبوب والأثمار. وكانوا يعتقدون أيضاً أن مقام الإله بالنسبة
الى سائر الآلهة هو مقام البلد المعبود فيه بالنسبة الى سائر البلدان؛ فعندما
سيطرت طيبة مثلاً على وادي النيل، جعلت إلهها أمون سيداً لجميع
الآلهة. ولما دالت دولتها، أصبح أمون في المرتبة الثانية بين الآلهة.
ومن أشهر الرموز التي أُلهت وعُبِدت ابن آوى رمز أنوبيس، والعجل
«أپس» والجعل وكلاهما رمز «فتاح» وغيرها من الحيوانات كالقرود
والهرة والتمساح وفرس الماء والبازي والجعل أي الجمران. وكانوا يعبدون
العجل مدة ٢٥ سنة فإذا لم يموت بعد هذه المدة أخذوه في مهرجان عظيم

وأغرقوه في النيل ، ثم أخرجوه وحنطوه ودفنوه في مدفن العجول
 بقرب سفارة ولبسوا عليه شعائر الحداد الى أن ينتقوا لهم عجلاً آخر يعبدونه
 وكانوا يحزنون حزناً شديداً عند هبوط منسوب النيل ويقدمون له
 القرابين استرضاءً . وفي إبان فيضانه كانوا يطرحون فيه فتاة عذراء
 يسمونها « عروس النيل » وقد بقيت هذه العادة متبعة حتى نسخها
 عمرو بن العاص لدن فتح مصر . وعيد وفاء النيل من المواسم التي يحتفل
 بها حتى اليوم في البلاد

ولما دخل مصر اليونانيون ثم الرومانيون أخذ كل فريق عن الآخر
 بعض معبوداته ؛ وصار المصريون يؤمنون بوحى أبولون ومينرفا وديانا
 وجوبيتر (المشتري) ومارس . ثم ظهرت النصرانية وانتشرت في العالم
 فاعتنقها فريق من المصريين . وظلت تنتشر في البلاد حتى أصبحت دينها
 الرسمي ، واضمحلت الوثنية في مصر بنهي طيودوسيوس عنها . وفي سنة
 ٦٤١ فتح عمرو بن العاص مصر فدخلها معه الاسلام

وقد اعتقد قدماء المصريين بالخلود والثواب والعقاب . وكان الإله
 الديان اوزيريس ، وكانت مملكته أولاً في بطائح الدلتا . فلما ضاقت
 برعاياه نقلهم منها الى السماء ، وسمي مملكته الجديدة « حقول الفول »
 إشارة الى خصبها . وكان قومه هناك متمتعين بالسعادة التامة والملذات
 على اختلاف أنواعها ، يطوفون مع الإله « الشمس » في زورقه ولا ينالهم
 أذى . ولم يكن يتمكن من الوصول الى مملكة الاموات هذه الا من
 حنطه قومه وأقاموا له بعض الطقوس الدينية . فمن تم له ذلك بُعث من

قبره وسافر الى حقول الفول ، فان كان عاقلاً شجاعاً تغلب على ما يلاقيه من المصاعب ، وبلغ سالماً مملكة الاموات حيث يمثل بحضرة الديان أوزيريس وأعضاء مجلسه الاثني عشر والاربعين . فيسمع المجلس اعترافه ، ثم يزن الإله « توت » قلبه بميزان الحق ، فان كان صالحاً أجازوا له الإقامة معهم والا حكموا عليه بالنفي المؤبد والتعذيب الأليم . وكان المائل بحضرة الديان يتقي عن نفسه اولاً ارتكاب المحرمات ، فيقول : « لم أُعذب الارملة ، ولم أخدع أحداً ، ولم أكذب قط ، ولم أعبث بالحق ، ولم أعرف الخيانة ولا الكسل ولا التعجرف ، ولم أدنس الاشياء المقدسة ، ولم أسع الى ضرر العبد لدى مولاه ، ولم أجوع أحداً ، ولم أبك أحداً ، ولم افتك بأحد غدرًا أو ظلمًا ، ولم أحمل أحداً على ارتكاب جريمة القتل ، ولم أحمل العامل فوق طاقته ، ولم أغتصب اللبن من فم الرضيع ، ولم أشهد زوراً ، ولم أسرق خبز المعابد ، ولم أحرز مالاً حراماً الخ »

ثم يمدد بمد ذلك الحسنات التي أتاها فيقول : « لقد عشت بالعدل ، وتغذيت بالحق ، ونشرت الافراح في كل صوب ، وأطعمت الجياع ، وسقيت العطاش ، وكسوت العراة ، ومددت للفرقى يد النجاة »

شرائع المصريين وآدابهم — من أمعن النظر في الذنوب والآثام التي تنصل منها الموتي وفي الصالحات التي تدعيها يوم المعاد ، أدرك ما كان عليه المصريون من الاخلاق الراقية والمناقب الحميدة . وقد عثر الباحثون في الآثار المصرية على كتابات عن شرائع المصريين وآدابهم تقتطف منها ما يلي :

كان يُعاقب بالقتل كلُّ من يحلف يميناً كاذبةً أو يمحن يمينه ؛
ومن يرى رجلاً يعتدي عليه معتدٍ ولا يغيثه وهو قادرٌ على ذلك ؛ فان لم
يقدر ولم يرفع أمر المعتدي الى أولياء الأمر عوقب بالجلد ومنع عنه الطعام
ثلاثة أيام . ويُعاقب بالقتل أيضاً كل من يرفع الى قاضٍ وثيقةً كاذبةً ؛
ومن يقتل عمداً سواء كان المقتول عبداً أو حرّاً ؛ وكذلك من يقتل
حيواناً مقدساً

وكان يعاقب بقطع اللسان كل من يُفشي أسرار الحكومة للاعداء ؛
ومن لم يكن له عملٌ او حرفةٌ يحترفها لتحصيل رزقه ؛

ومن شرايئهم ايضاً ان ناكروا الدين يُصدّق يمينه اذا لم يكن عند
المدعي سندٌ يؤيد دعواه ؛ وان للدائن حقاً على ممتلكات المدين لا على
شخصه ، فلا يجوز للدائن ان يسجن المدين او يمسّه بأذى لانه تابع
لوطنه يخدمه في الحرب والسلام

ولم يكن يجوز لاحدٍ ان يحترف حرفةً غير حرفة أبيه فكانوا بذلك
يتوارثون الصنائع والحرف

وكانت المرأة المصرية حرة كبناتنا اليوم ، نصيبها من الارث
نصيب الرجل ، وقد أباح لها شرعهم ان تتصرف بارثها بعد زواجها كيف
شاءت ، ولقبوها وهي مزوجة « بسيدة البيت »